وجهة نظر

مآخذ اجتماعية على حياة المرأة العربية

نازك الملائكة

ليست هذه المحاضرة ★ دراسة في فلسفة الحياة الاجتماعية وانما هي بحث في المدلولات الفكرية لحياة المرأة حاولت فيه ان أحلل الازياء الى مضمونها الروحي وأربطه بذهن المرأة وحياتها الاجتماعية والقومية . ولقد يبدو ، أول وهلة،ان الزي الانساني عرض خارجي لايرتبط بأعماق الانسان ، غير انني لست من أنصار هذا المذهب ، وانما أدين بان كل مظهر من حياة الانسان مرتبط بصميم روحه ، فالحياة مترابطة موحدة لا يمكن تجزئتها. والملبس يؤثر في العقل ويحدث تغييرا في روح الانسان .وعندما تختار المرأة العربية اليوم لنفسها ان تكون متبرجة مبالغة في الاناقة ، فهي بذلك تصدر على ذهنها وروحها حكما قهارا يزج بها في ظلمات فلسفية وفكرية لا حصر لها . وابرز هذه المسالك المظلمة انها تخلي حياة المرأة من فكرة الحرية اخلاء تاما .

ولكي نوضح معنى حكمنا هذا لابد لنا ان نقول بدء بأن هناك خطأ عاما في تعريفنا للحرية ، فنحن ننسب اليها مواقف ليست منها في شيء مثل ان نقول ان المرأة قد تحررت ونريد بذلك انها اصبحت قادرة على الخروج والدراسة في الجامعة والعمل في وظائف الدولة . فان هذا الحكم يتغافل عن اصناف العبوديات التي تعشش في روح المرأة وتسيطر على عقلها . ان فتاة الجامعة والوظيفة ما زالت تحمل في نفسها نظرة الازدراء المهينة التي كان المجتمع يحدجها بها فهي أسيرة وان حسبت أنها حرة . اما التعريف الحق للحرية في نظرنا فهو سقوط القيود والاغلال عن الذهن الانساني بحيث يقوى على فرض نظرة جديدة أصيلة الى الاشياء كلها ، ويستطيع ان يغيرها وفق حاجاته الروحية . فاذا وجد خطأ او قبحا أو ضررا استطاع ان يحتج عليه ويرفضه ويغيره الى ما ينفع الحياة الانسانية ويخصبها ويجملها . والمرأة ، مع الاسف، ما زالت تنقصها هذه النظرة الحرة الى الاشياء .

لقد تركت الشخصيات النسوية في كتاب (الف ليلة وليلة)نموذجا سيئا للمرأة العربية ، هو نموذج الجارية التي لا يهمها الا لباسها ولا ترى في نفسها أكثر من متعة للرجل تعيش بغرائزها وعليها ان تكون جميلة وان تسلي الرجل وتطهو له الطعام السائغ . وهذا النموذج ما زال المتحكم في حياة المرأة العربية لم يغيره خروجها الى الحياة العامة قطعا ، وكل ما تغير فيها أقوالها . فقد بتنا نسمعها تتحدث عن دور اجتماعي عظيم تقوم به ، وخوض لمختلف مجالات العمل والبناء ، وتحرر من عبودية القرون المظلمة. غير ان صميم حياة المرأة يكذب هذا ويبطل أثره . أن في وجودها تجزيئية واضحة تفرق بين القول والعمل ، بين النية والتطبيق ، بين الفكر والحياة . وما زالت المرأة تحيا بعواطفها وغرائزها وحدها ، منحها الله الذكاءوالعقل والابداع فلم تستعمل منها شيئا وبقيت أشبه بدمية مثلها

★ القيت في الموسم الثقافي الرابع لجامعة البصرة .

الاعلى الاناقة المسرفة ، وبذلك جحدت عطاء ربها وجحدت المجتمع وجحدت ذاتها .

ولعل خير بداية نفتتح بها دراستنا لحياة المرأة العربية ان ننظر في المجلات التي تسمي نفسها نسائية فماذا سنجد فيها ؟ انها في أغلب الحالات مجلات أزياء لا تجعل للمرأة هدفا أبعد من ملابسها وحقائبها وأحذيتها. وهذه المجلات تعامل المرأة الحديثة معاملة جواري ألف ليلة فتكتب لهن أمثال هذه العناوين المهينة : « سيدتي : ماذا تلبسين في رحلة بحرية ؟ » أو « فساتين للصباح » أو « تسريحات للشعر بعد الظهر » أو « بأي ملابس تظهرين في حفلة العشاء ؟ » فما تلبسه المرأة في الصباح يختلف عما تلبسه في المساء . وما يلبس في حفلات الرياضة يختلف عما يلبس بعد الظهر . وثياب المنزل تختلف عن ثياب الخروج . ولضفاف البحر ملابس خاصة . وعلى المرأة المتوسطة ان تكون لها ملابس لكل هذه المناسبات وان يكون لها اكثر من واحد لتستطيع التغيير والتبديل ... ولكل ثوب عقد خاص به وأقراط وأحمر شفاه ينسجم معه وحذاء وحقيبة . واختصارا للموضوع تجد المرأة انها اذا أرادت ان تكون أنيقة كما تدعوها المجلات والاذاعات فسوف تجد ان الحياة كلها لا تكفي للاناقة .

وما المدلول الفكري الذي يختفي وراء هذا ؟ ان معناه ان الجمال الانساني أصبح من التكلف والتعقيد بحيث لا يمكن تحقيقه الا بتبديد الوقت وهدر الطاقة وقتل الروح . ولا ينبغي ان تسمح المرأة الحرة ان يجعلوا جمالها كلفة روحية وعقلية باهظة تنفق لها من حساب انسانيتها وتفقد في سبيلها حريتها وكرامتها . والواقع ان النظرة التي تجعل اكتمال جمال المرأة بالملابس الكثيرة نظرة تجعل الجمال مرادفا للاناقة ، وهما في واقع الامر ليسا مترادفين مطلقا . وما الجمال وما الاناقة بالمعنى الروحي ؟ أما الجمال فهو ملك للوردة الحمراء المشتعلة بالحرارة واللون والخصوبة على غصنها اللدن . والوردة لا تتأنق . الجمال ملك للفراشة التي وهبها الله ألوانها ولم تضع على شفتيها أحمر الشفاه ، ولم تزجج حاجبيها بالقلم الاسود . الجمال ملك لفتاة ذكية العينين بسيطة المظهر يشع وجهها عطفا وحنانا وكأنها تريد ان تحتضن الوجود كله وتغمره بمشاعرها الكريمة . وهذا الجمال المرهف العذب مبذول زهيد الثمن تملكه كل فتاة دون ان تضيع وقتها في أسواق الملابس وعند الخياطة الجاهلة . انه جمال ينبع من الروح الكبيرة المستوعبة والذهن الحر المرن والقلب النابض الرقيق . وهو جمال الخلق الكريم والعذوبة والخشوع لله والنزاهة وكبر النفس . وهذا الجمال لا علاقة له بالملابس والحلاق لانه يتألق على وجه كريم وعيون حنون معطاء ، وهو يلمع على الشعر البسيط المسترسل الذي لا يهينه الحلاق بالعبث به . هذا هو الجمال فتعريفه انه البساطة الانسانية والفطرة كما خلقها الله حيية روحية متفتحة .

واما التأنق فما اتفهه وما أشد اذلاله لروح الانسان. التأنق هو الوسائل المصطنعة التي يظنونها توءدي الى طريق الجمال . أو لنقل انه الجمال المزيف المصنوع بالوسائل الآلية وسواها . فبدلا من ان تعتمد الفتاة على مرونة ذهنها وسعة ثقافتها وجمال روحها ورقة ابتسامتها نجدها تعتمد على كثرة ملابسها والتصنع في شعرها . وبدلا من ان توسع آفاق فكرها بالمعرفة والعلم تلجأ الى التبرج والتفنج والملابس القصيرة الضيقة التي تبرز أعضاء الجسم كما تبرز أجسام الجواري في سوق النخاسين . فالتأنق شر عظيم يحيق بذهن المرأة ويقتل روحها ويذل عقلها لانه يمد مظهرها على حساب ذهنها ويكر بها الى العصور الغابرة حين كانت المرأة تباع وتشترى في قصص ألف ليلة .

وقد تظن الفتاة ان تبرجها شيء ظاهري لا يمس عقلها فهي تستطيع ان تكون حرة الفكر رغم امعانها في الاناقة واسرافها في التصنع . وهي في هذا مخطئة فان لكل عمل يقوم به الانسان آثارا فكرية وروحية بعيدة المدى. ان أعمالنا تؤثر في عقولنا وأرواحنا وتعيد صياغتها، فاذا لم يتحكم العقل في سلوكنا تحكم سلوكنا في عقلنا. واول نتائج هذا التحكم ان التأنق يذل المرأة ويقتل كبرياءها. واساس هذا الاذلال ان اقامة اسس الاناقة على كثرة الملابس وعلى الحلاق يشعر المرأة بان الجمال هو الشيء الذي ينقصها لا الشيء الذي تملكه . فاذا أرادت ان تكون جميلة وجب عليها ان تكافح في سبيل ذلك فتعمل ليل نهار في استكمال ذاتها الناقصة . ومعنى ذلك ان مبدأ التأنق يقوم بدء على الاقرار بان المرأة لا تملك جمالا وانما هي ناقصة وعليها ان تصنع الجمال صنعا لتجتذب عيون الرجل . فالتأنق اكمال لنقص بخلاف الجمال الذي هو فيض من السحر والعذوبة يطفح ويتدفق ويغمر الحياة كلها . التأنق نقص والجمال فيض ، وذلك هو الفرق الفلسفي بين حالتين تفقد المرأة في أولاهما كل شيء وتضطر الى الكفاح. وتمنح في الثانية خصبا وعذوبة وكمالا . وفي ظل الاناقة يصبح الجمال الفطري عاطلا من القيمة ، فان الجميلة كالقبيحة مضطرة الى ان تكون أنيقة وان تضيع وقتها في هذه التوافه . فكم تخسر المرأة حين تطرح الجمال وتتمسك بالاناقة .

وطريق الاناقة ، كما يعلم كل انسان ، طويل مديد كله عقبات . فأول ما تحتاج اليه المرأة في ذلك ان يكون لها وفر من المال يفيض عن حاجتها . فالغنى المتوسط شرط من شروط التأنق . اما الجمال فكلنا يعرفه فقيرا متواضعا لا يملك شيئا . انه منحة الطبيعة المعطاء للفتاة الرقيقة البسيطة . والمرأة الانيقة يجب ان تملك ثيابا كثيرة وملحقات لا حصر لها. ولا يخفى عليكم ان مؤسسات الازياء قد عقدت هذه الاشياء تعقيدا مسرفا . فالحرص على أبسط مستوى في هذا يقتضي مالا كثيرا . ومن ثم فان مبدأ التأنق حين يصبح هو القانون النافذ في

عالم الفكر

المجلة التي ينتظرها المثقفون في الوطن العربي

يصدر العدد الاول منها (ابريل ، مايو ، يونيه)

في اول ابريل القادم حافلا بالمواضيع القيمة :

قسم خاص عن عصر الازمات :

* **أمراض الفكر في القرن العشرين** — الدكتور محمد زكي العشماوي
* **الايمان في عصر العلم** — الدكتور محمد عبد الهادي ابو ريدة
* **ازمة العلوم الانسانية** — الدكتور أحمد أبو زيد
* **النظام السياسي في المجتمع التكنولوجي الحديث** — الدكتور حازم الببلاوي
* **ازمة التحامل والتعصب** — الدكتور سعد عبد الرحمن

من الدراسات الاخرى :

* **العلاقات بين العلماء في العصر العباسي** — الدكتورة وديعة طه النجم
* **الطبيب الازلي** — الدكتور بول غليونجي

مع عرض واف لأهم الكتب الجديدة

مع عرض واف لأهم الكتب الجديدة

المجتمع يحرم نساء الطبقة الفقيرة ان يكنّ جميلات وبذلك يصبح الجمال حكرا تملكه الطبقة المرفهة وحدها. وفي ذلك اذلال للفقر وللفتاة الفقيرة . فالتأنق ضرب من الطبقية الاجتماعية ، بينما الجمال ديمقراطي شعبي مشاع يملكه الكل ولا يشتريه المال والفنى .والجمال في هذا شأنه شأن العناصر الخيرة في حياتنا جميعا فمثله في شيوعة العقل والخيال والخلق والفضيلة ، فان كل هذه الاشياء العظيمة لا تشترى بالمال وانما هي منحة الله للفرد يملكها الفقير والغني معا فمن الخطأ ان يتبنى المجتمع مبدأ التأنق الذي يفرض الانحراف على طبقات الشعب .

ان مدلول هذا كله هو ان الاناقة ترفع الجمال الى مستوى الاشياء الباهظة الثمن ، وفي هذا ما فيه من اذلال لكل فرد في المجتمع . ومن ثم يصبح التأنق انحرافا في تعريف الجمال يقسم المجتمع الى طبقات ويجعل الثورة التي نتغنى بها مجرد الفاظ على شفاهنا ولا تطبيق لها ولا حياة فيها . والثورة كل ثورة ، لو أمعنا النظر ، مناقضة للاناقة المسرفة . الثورة طريق الفقر والتواضع والبساطة. والاناقة درب الاغنياء يفرشونه بالحرير والعطور والذهب. وهذا الذي نقوله ليس مجرد حكم شعري منمق . فلو زرنا الاتحاد السوفيتي موطن الثورة الشعبية لرأينا النساء بسيطات الملبس مسترسلات الشعر لايعرفن التأنق ،وانما تأتينا هذه الاناقة الشائهة من بلاد الاستعمار والرأسمالية في الغرب وهذه حقيقة لا نكران لها ومن عجب أننا لا نتدبرها مطلقا .

بعد ان درسنا كيف يذل التأنق المرأة بان يجعل الجمال كفاحا مريرا بدلا من ان يكون طبيعة وفيضا ،وبعد ان لاحظنا كيف تذل الاناقة الشعب بأن تقسمه الى طبقات متمايزة ، نأتي الى جناية اخرى تجنيها الاناقة المسرفة على الانسانية . وتلك هي الجناية على الوقت الذي هو ثروة الامة . ان الاناقة النموذجية التي تدعو اليها مجلات المرأة تقتضي من الوقت ما لا تتسع له الحياة . فلقدتربصت بهذه المجلاتعدة أشهر ذات مرة وأحصيتمجموعة الاشياء التي تحتاج اليها المرأة لانجاز الاناقة المثلى فوجدت الحياة كلها لا تكفي . لقد حقروا المرأة بان جعلوا شعرها

ـ التتمة على الصفحه ـ ٨٩

وجهة نظر

ـ تتمة المنشور على الصفحة ـ ١٣ ـ

النموذجي تعقيدا عاميا لا يحققه الا الحلاق الذي يهينها باجلاسها تحت المجفف ساعتين ليصفف شعرها تصفيفا مصطنعا . وقد فرضوا عليها العناية ببشرتها نصف ساعة وربع ساعة للاهداب ، وكذا من الوقت للاظفار ، ووقتا للعناية بالكفين والقدمين وتمارين رياضية لتخفيف الخصر واخرى لمنع تجعدات الوجه وتمارين استرخاء وحمامات بخار . وكل هذا يأكل وقت المرأة وعقلها ولا يبقي منها جانبا للشعور الانساني وانما يحولها الى دمية انيقة لا روح لها حركاتها آلية وبسماتها مصطنعة . ان الوقت الثمين الذي يضيع عند الخياطة كان يمكن ان ينفق في اسباغ الحب على اب شيخ مريض ، او زوج مرهق ، او طفل يحتاج الى التوجيه . وبدلا من ان تذهب الفتاة الى الحلاق تستطيع ان تطالع كتابا ينير عقلها ويهدي روحها . بدلا من ان تذهب الى خبير التجميل تستطيع ان تنتمي الى جمعية تخيط الملابس للاجئين وتكسو طفلا عربيا عاريا . ان وقت الفتاة هو ثروة الامة وهي لا تدري . فكم ساعة من الوقت يكتسب المجتمع لو حذفنا الحلاق من حياة النساء ؟ والشعر المسترسل الطبيعي هو الجمال الحق فيه روحانية وجلال وبساطة ،ووراءه قيم اجتماعية عالية لانه لا يكلف وقتا ولا مالا ولا يذل روح الانسان .

وخلاصة الرأي ان الاناقة مستوى من الجمال لا يوصل اليه الا باضاعة الوقت الكثير النافع الذي كان ينبغي انفاقه في جهات أخرى ولا يصح للمجتمع ان يرفع مستوى الكماليات بحيث تصبح قاتلة للحياة الانسانية نفسها . ان المقياس الاعلى هو الانسان وخصب روحه وقوة انطلاقه نحو المستقبل الاسعد ذلك مقياس كل شيء ومنه الجمال .

***

والاناقة بما فيها من تكلف وصناعة تفرض على ذهن المرأة صنوفا شتى من العبوديات تعمل في حياتها وهي خانعة راضخة لا تحتج ولا تقوى على الاعتراض . ان دور الازياء تحمل سيفا بتارا وترفع سبابتها آمرة ناهية فتصيح بالمرأة البسي هذا واخلعي ذاك فلا تزيد المرأة على الرضوخ الخانع دون ان تفكر لحظة واحدة في رفض هذه الاوامر .وفي احيان كثيرة تأمر دور الازياء بما هو مضر أشد الضرر ، ومن عجب ان المرأة تقبل وتسكت فكأنها منومة لا قدرة لها على انقاذ نفسها كتلك الطفلة التي كانوا ينومونها ويسقونها ماء الملح زاعمين لها انه مشروب حلو فتشربه خاضعة مصدقة مع انه ملح صاف . ومن أبرز هذه الاوامر المتعسفة التي قضت بها دور الازياء واشقت بها حياة الملايين من النساء في العالم ، لبس الكعوب العالية ، وهي بدعة ظالمة لم يعد الناس يلاحظون ما فيها من هوان وشر لطول ما ألفوها . والمألوف الشائع يسكت العجب ويميت الاحتجاج لانه يتحول الى عادة مقبولة . ولعمري كم امرأة في العالم قد سألت نفسها : لماذا البس حذاء ذا كعب عال يضايقني في المشي ويضر باستقامة ساقي ؟ وكم امرأة قد صنعت شيئا في مقاومة هذا الطغيان المذل ؟ اما الاضرار المادية والروحية التي يفرضها الكعب العالي على المرأة فهي كثيرة سنحصيها وندرس صلتها بوضع المرأة الفكري العام : ـ

وابسط وجوه الضرر التي ينزلها الكعب العالي هو الوجه الصحي . فان الله قد خلق القدم مسطحة لحكمة عظيمة تنسجم بها القدم مع الجسم فيساعده ذلك على الحركة والحياة والنمو . وما اظن أي انسان متعلم يقوى على مناقشة هذا فالصحة تتطلب ان نلبس الكعب الواطيء والمشية الطبيعية التي تساعد الجسم على الرشاقة والجمال هي مشية تنبسط فيها القدم ويرجع الصدر الى وراء . وكل امرأة سليمة لم تشوه الاباطيل ذهنها تعرف بان السير بهذه الكعوب عسير مزعج . وأعجب العجب ان هناك سيدات تبلغ بهن عبودية الذهن انهن يزعمن ان الكعب العالي اسهل في المشي عليهن من الكعب الواطيء . وهن يناقشن في ذلك متحمسات فما مدلول هذا ؟ مدلوله الواضح ان طول ما ألفن هذا القيد قد أمات أحساسهن الطبيعي وجعلهن يدافعن عنه كما تدافع المرأة الصينية القديمة عن الاربطة الضيقة الجارحة التي يربطون بها قدمها لتبقى صغيرة فيصبح الاسر عادة . ولعل ذلك يشبه موقف ذلك العبد الذي تعلم ان يضربه سيده حتى اذا كف يوما عن ضربه أستاء وضاق وشعر انه ناقص . فالدفاع عن الكعب العالي من هذا الصنف .

وابسط وسيلة لاثبات هذا ان نسأل رجلا ان يلبس الكعب العالي ويسير به نصف ساعة وسيرى معنى ما نقول، فان السير بالكعب العالي يكاديكون مستحيلا. وانا شخصيا لم استطع حتى اليوم ان احتمله . والمرات القليلة التي ارغمت فيها على لبسه كانت أتعس أوقات عمري وقد شعرت خلالها بازدراء فكري لنفسي وحنق غاضب على الذين وضعوا للمرأة هذه العبودية المرهقة . وبقيت اتساءل عن السبب الذي يوجب على المرأة هذا العذاب فلم اهتد مطلقا اللهم الا ان الانسان الشرير الذي ابتدع هذا الكعب قد ارتجله ارتجالا دون اية فائدة اجتماعية للمرأة . وقد ارادوا بذلك ان يفرضوا علينا بطء الحركة وقلة الحياة .

ويتبع السبب الصحي في ضرر الكعب العالي سبب جمالي فني يتطلبه الذوق الانساني السليم . لان الكعب العالي يضفي التصنع والتكلف على مشية المرأة فتموت الروح الانسانية الحرة التي خلقت لتكون كريمة منطلقة تفرض ذاتها على كل شيء . وانما سعادة العقل والروح

في ان يكون الجسم حرا مرتاحا غير ذليل . والكعب العالي يقتل الروح ويذلها لانه يفرض علينا ان ندوس طبيعة أجسامنا دون سبب وجيه . فلماذا ينبغي ان تتصنع المرأة في مشيتها ؟ قالوا ان ذلك مقياس الجمال ولذلك جعلوه النمط . ولكن من وضع هذا المقياس للجمال ؟ اما الطبيعة فان مقياس الجمال عندها هو انسجام اوضاع الجسم وانما تنسجم مع بنائه هي الحركة الجميلة دائما. ان الجمال هو انسجام اجسامنا مع الحركات التي تؤديها. فاذا أردنا اطلاق أعلى قابلياتنا الفكرية والروحية فان علينا ان نقوم بالحركات الطبيعية التي تلائم اجسامنا فبذلك تنمو وتزدهر روحنا ونملك الحرية والجمال . والكعوب العالية تقتل الحركة الطبيعية قتلا وتذل الجسم لانها تفرض عليه حركات مصطنعة . واذا شعر الجسم بانه ذليل ذلت روح الانسان ونكست رأسها وخنعت . ولعله لا يخفى ان التصنع بالمعنى الفلسفي اذلال للجسم والعقل. وانما الكرامة الفكرية في ان نكون طبيعيين نؤدي اعمالنا ونحن أحرار في حركاتنا نغدو ونروح في خفة ورشاقة وحرارة .

وثالث وجوه الضرر الكامنة في الكعب العالي الوجه النفسي . فالكعوب العالية تعذب المرأة وتحرمها السعادة بالشمس والحركة . ان جوهر الحياة هو قدرة الانسان على الحركة ، فمن التحرك تنبعث البهجة وينبثق الرضى النفسي العميم . والمرأة لاتقدر على الحركة المنطلقة الطبيعية فاذا همت بالوقوف والسير خطوات شعرت بقدمها تقيدها وتفرض عليها الترنح في السير والتعب والتكلف . ولقد تعلمت المرأة تدريجيا الا تكون حركاتها متحمسة مبتهجة وان كانت لا تلاحظ ذلك . انها قد فقدت القدرة على التعبير بالحركة والفت فقدان بهجة التحرك وفرحة الانطلاق . وكم من امرأة ماتت حماستها وفرحتها بالشمس والحياة وهي تسعى في الطريق بقدمين ذليلتين مربوطتين . تريد ان تنطلق مع عقلها وروحها وتتحرك مع المتحركين وتدعو الى الحياة والضوء فتشدها رجل اسيرة وضعوا لها كعبا أحمق لا معنى له ولا فائدة ولا جمال . ان سعادة المرأة مثل سعادة الرجل في ان تعبر عن نفسها بالحركة والحياة . اما الرجل فقد كان كريما عزيز النفس فلم يستطع احد ان يضع له مسمارا في اسفل قدمه ، وأما نحن النساء فقد قبلنا الذل وسكتنا على ان نسلب الحرية والحياة . أمرونا بالتصنع فلم نحتج، وسألونا ان نعذب سيقاننا وظهورنا فخنعنا . وأعطونا الهوان فقبلنا . وبذلك فقدنا بهجة العيش وقهرت روحنا وأصبحنا كالدمى التي تحركها خيوط .

ثم نأتي الى الضرر الرابع للكعب العالي وهو ضرر منظور اليه من وجهة النظر القومية . فقد فرضت الثورة الاشتراكية العربية على المرأة ان تكون فردا عاملا في المجتمع شأنها في ذلك شأن الرجل ، والفرد العامل يحتاج اول ما يحتاج الى الحركة في العمل والتوجيه . وهذه الكعوب العالية تمنع المرأة من العمل النافع وتفرض عليها بطء الحركة والتعب الدائم مع التصنع المقيت في المشي مما يتعارض مع صفة الفرد النشيط العملي . ونحن اليوم في عصر البناء . عالمنا العربي متأخر يحتاج الى سواعدنا كلنا في مختلف الحقول بينما نصف المجتمع مربوط القدم يكاد يكون مشلولا . والواقع ان الكعب العالي لايتفق مع روح المرأة الثورية العاملة أي اتفاق لانه يمنع من الحركة ويفرض على المرأة البطء . ولا شك في ان الاذهان المريضة التي ابتكرت هذه البدعة اول مرة قد هدفت الى أن تمنع المرأة من ان تسير نشيطة حية كما يسير الانسان السليم وانما تتهادى كالمتعب السئم . وهذا من مظاهر عهود العبودية التي عاش فيها المجتمع قديما حيث كانت مقاييس الجمال النسوي تؤدي جميعا الى ابقاء المرأة مشلولة قاصرة اليد والعقل . وتلك هي العهود التي كان المثل الاعلى للمرأة فيها أن تكون مدللة ناعمة تأكل وتنام الضحى واذا سارت سارت وئيدا تجر اذيالها الطويلة من البطر والدلال والفراغ. ولعل المجتمع الغربي يظن انه قد تخلص من هذه النظرة الى المرأة . ولكن ذلك ظاهري وحسب ، والكعب العالي ابرز مثال . نعم خرجت المرأة الغربية الى العمل ولكن روحها ما زالت ذليلة ومقاييس الجمال القديمة ما زالت نافذة في حياتها . وها هو الكعب العالي يصنع شرا مما كانت الذيول الطويلة تصنعه ، فالذيل الطويل يعرقل السير فقط . اما الكعب العالي فهو يعرقل السير ويذل الروح الانسانية في الوقت نفسه لانه كما قلنا يحول بين الجسم وغريزة الحركة والحياة والانطلاق.

وآخر صنوف الضرر التي ينزلها الكعب العالي بالنفس الانسانية هو الجانب الاخلاقي من الموضوع . والكعب العالي ، بالمعنى الفكري ، مضر بأخلاق المرأة يسيء اليها ويلوث نفسها . ويرجع سبب هذا الى ان طائفة من النساء يلبسن الكعب العالي لانهن قصيرات القامة فيحاولن بالكعب ان يتطاولن لعلهن يساوين الطوال والطويلات . ومن سوء الحظ ان طول القامة اليوم يعد من مقومات الجمال . وذلك هو الذي يدفع بالقصيرات الى التطاول ، كما يدفع الطويلات الى ان يكن أطول مما هن عليه . وأول ما نلاحظه في هذا الباب ان كل محاولة من المرأة لاسباغ طول غير حقيقي على قامتها انما هو كذبة على الطبيعة وخداع للعقل والنفس . ان على الفتاة القصيرة ان تشحذ ثقتها بنفسها وتعتز بطولها دون إن تلوث نفسها بالكذب والتطاول . فقد خلق الانسان كريما، ومن كرم الذات ان نعترف بأبعاد حقيقتنا ونتقبل واقعنا صادقين نزيهين فلا نكذب على الناس وعلى انفسنا ، ولا نلجأ الى أساليب مذلة نطيل بها قامتنا بالتزييف والتصنع. والواقع ان كون الكعب العالي وسيلة من الكذب والنفاق يجعل فيه ضررا اخلاقيا واضحا . فالخلق الانساني ليس شيئا نظريا وانما ينبغي ان يشمل الحياة كلها فنصدق في اعمالنا واحاديثنا وواجباتنا . والكعب العالي كذبة تريد

بها بعض النساء ان تخدع المقابل فتوهمه انها اطول قامة مما هي عليه في الواقع. وكل كذبة تلوث النفس الانسانية لانها تذلها . وسبب اذلال الكذب للانسان انه يهدم الثقة بالنفس وعندما تدرك المرأة انها ترتفع على أطراف أصابعها وتحتمل الالم والتكلف لتتطاول تشعر بالهوان وازدراء النفس دون ان تدرك شعورها او تشخصه . ان احتقار الذات في هذه الحالة غير واع وهو ينزل بشخصية الفتاة الضرر دون ان تدري . وتلك بداية غلطة روحية عظيمة تفقد المرأة ثقتها بنفسها ، والثقة بالنفس كنز الانسان الاعظم ، ينبع منها الذكاء والبطولة والعظمة . ولا اظن اية امرأة يخطر لها ان الكعب العالي يسلبها شخصيتها الروحية والفكرية . ذلك انه يشعرها بانها لم تخلق طويلة بالقدر اللازم وان الخالق سبحانه وتعالى قد أساء اليها وحقّرها بالقصر غير المقبول فلا بد لها من اضافة يسبغها عليها حذاؤها انعليها ان تكون ذات بهتان وتصنع وباطل لكي تساوي الطوال . ومن هنا ينبع الاذلال والزيف في شخصيتها .

ولنسأل انفسنا حقا : هل ينبغي للمرأة ان تكون اطول مما هي عليه ، وهل أخطأ الخالق سبحانه بجعلها اقصر قامة من الرجل ؟ في الواقع ان الخالق الكريم قد أحسن صنعا عندما جعلنا اقصر من أزواجنا وآبائنا وأخوتنا ، فان المرأة تأوى الى ظل الرجل وتطلب حمايته وحنانه وهي لا تستطيع ان تحيا من دون ذلك . وقد جعلها الخالق اقصر قامة من الرجل لحكمة كريمة . ولو تأمل الرجل دخيلة نفسه لوجد انه يسعد حين يجد نفسه أطول من زوجته وأخته وبنت عمه ، وكذلك تحس المرأة بالرضى النفسي وهي تجد انها أقصر من الرجال . ومن ثم فان هذا الكعب العالي غليظ لا فهم له ولا ذوق . انه تمرد على الطبيعة النفسية للمرأة والرجل . فكم من امرأة تسير اليوم الى جانب زوجها او أخيها او ابيها وهي تبدو اطول منه بالكذب والتصنع ؟ ولو كان الخالق يعتبر طول المرأة ضروريا لاستطاع في يسر وسهولة ان يضع لها عظما في أسفل كعبها بدلا من الكعب العالي . ولكن حكمة الله أوسع من ان ندركها كلها. والخطأ في الموضوع خطأ البشر، جل الخالق العظيم ان يكون عمله ناقصا أو مغلوطا .

ونختتم حديثنا الذي طال عن الكعب العالي بالقاء سؤال فني : هل الكعب العالي جميل ؟ وهو سؤال ينبغي لنا ان نتامله ، لان هذا الكعب قد شاع شيوعا عظيما ، واقل ما يمكن ان يقال فيه ان الحذائين يرونه جميلا ويبرزون فنهم فيه ، وان نساء كثيرات يرين فيه سر الاناقة ، فما سر هذا الوهم الجمالي بعد ان شخصنا أضراره المختلفة الكثيرة ؟ ولسوف ندرك وشيكا ان الجمال الموهوم في الكعب العالي ناشيء عن شيوعه وحسب ، فهو لم يصبح جميلا الا لانهم عودوا العيون عليه . وكل شائع يصبح مقبولا وكأنه يخدر العقل عن الحكم الصحيح . وخير دليل على هذا ان اصحاب الازياء جعلوا ملابس النساء طويلة حتى توشك ان تلامس القدم عام ١٩٤٨ فأصبحنا كلنا نرى الجمال في تلك الملابس . حتى اذا عادوا وجعلوها قصيرة أصبح القصر يبدو مستساغا . فالشيوع يسبغ الرضى على الاشياء المجردة من الجمال في ذاتها . ومن هنا ينبغي ان نبدأ حكمنا على الاشياء الشائعة . ان علينا ان نحكم العقل في جمالية الاشياء دون ان نسمح لشيوعها ان يدمغ تفكيرنا ويعطل قابلية الحكم فينا . ولا ينبغي للسيدة المثقفة المستنيرة ان تحكم بان الكعب العالي جميل بعد ان بينا لها عيوبه جميعا لان عليها ان تتذكر ان الشيوع يشكل فكرها شللا كاملا فلا بد لها اذا أرادت ان تحكم حكما سليما ان ترتفع فوق تخدير هذا الشيوع المضلل وتتجرد من ضعف العقل أمامه .

* * *

نعود الان الى مسألة الاناقة عامة بعد ان انشغلنا بمسألة الكعب العالي ، وهو قضية جزئية من قضايا الاناقة درسنا وجوه استعبادها لذهن المرأة . ونريد الان ان نتناول الجانب القومي من مسألة التأنق ، وهو جانب خطير كل الخطر . واني لاتساءل في بدء وقوفي عند هذا الجانب كم من ملايين الدنانير تنفق نساء العالم العربي كل عام في شراء الثياب والاحذية والعطور والمساحيق ؟ احسبنا لو قدرنا ذلك باربعمائة مليون دينار لما بالغنا . فلو انزلت كل امرأة نفقات اناقتها الى الربع لاستطعنا شراء طائرات تكفي لدحر عدونا الاكبر اسرائيل. واني لاندهش أشد الدهشة كيف لا تفكر مجلات الازياء عندنا بهذا . اننا نستورد مستلزمات الاناقة جميعا من الغرب تقريبا فمن اقمشة الى جلود للاحذية الى عطور ومساحيق الى عقود واشرطة وكل ذلك يكلف الدول العربية الملايين الكثيرة كل عام .

والذي يحدث لنا في هذا السبيل يلفت نظر اي ذهن متامل لو أراد ان يتدبر . تقضي المرأة اشهرا طويلة تعد ملابسها وملحقاتها حتى اذا أكملت استعدادها تغير النمط فجأة فاذا الملابس القصيرة تتحول الى طويلة في الموسم الجديد وبذلك تضطر النساء الى التخلص من ثيابهن جميعا . ولا يتغير الطول وحده عادة وانما يغيرون أسلوب الخياطة وشكل الخصر . اذكر من ذلك انهم خطوا لنا منذ سنوات ان تكون ملابسنا ملونة زاهية ذات طبعات كبيرة كل الكبر فامتلأت الاسواق بهذه الملابس وطبلت لها المجلات حتى اصبحت الفتاة التي تلبس ثوبا بطبعات صغيرة تحس انها سقيمة الذوق تخالف الشائع ، ولذلك اشترت النساء جميعا ملابس تجاري النمط العام . وفجأة في العام التالي غيروا الانماط كلها دفعة واحدة فجاءوا بملابس جديدة طبعاتها صغيرة كل الصغر رقيقة كل الرقة وخياطتها فضفاضة كاكياس الدقيق حتى اصبحت من تلبس ثوبا له خصر وفيه ورود كبيرة تشعر انها متخلفة لا ذوق لها . فكانت النتيجة ان الخزانات الملأى بالملابس

الانيقة اصبحت تبدو كالخاوية فما فيها شيء يمكن ان يلبس وعند هذا ذهبت العشرات والمئات من الدنانير الى المزابل وأضطرت كل فتاة الى انفاق عشرات جديدة لشراء ملابس جديدة . وهل نحتاج الى ان ندرس نتائج هذا؟ ان معامل الاقمشة في الغرب المستعمر تضحك منا وتستعملنا نحن النساء في ضرب الاقتصاد القومي في العالم العربي . ومعامل الاقمشة لا اخلاق لها ، وآلاتها الرهيبة بلا قيم ولا انسانية . انها تريد ان تبيع وتبيع وليس يهمها في سبيل ذلك ان تقتل روح الانسان وتذل كرامته . وهذه المعامل الشريرة الجشعة هي التي تغير الانماط كل عام . فتصنع دفاتر للنماذج جديدة وهو ما يسمى بالموديلات التي تغمر أسواقنا مثل مجلة (بوردة) اليهودية وسواها . وهذه المجلات تفتك بروح المرأة فتكا ذريعا وتؤدي بنا الى الخراب الاقتصادي الاكيد . .

وقد دأبت المعامل على استعمال كل وسائل الاعلام في بث الدعاوة لما تنتج ، فهي تأتي بخبراء للملابس يخيطون الاقمشة الجديدة في انماط معينة ثم تقيم معارض للازياء فتأتي بفتيات جميلات تلبسهن هذه الملابس وتعرض اجسادهن على العيون كما كانت الجواري تعرض في سوق النخاسين . والمعامل تعطي جوائز على هذا العمل وتبذل آلاف الدنانير في الاعلان وحشد الجهمور واغرائه بشتى الطرق . وقد اصبحت اخيرا تغري الاذاعات المرئية بتصوير حفلات الازياء هذه ونقلها ليراها الملايين وينتقل الفساد الى داخل البيت العربي نفسه . والغرض من ذلك اقناع النساء في العالم بأن الازياء قد تغيرت وأنماط الموسم الماضي قد ماتت وحلت محلها أنماط جديدة فعلى المرأة الانيقة ان تسرع الى الاسواق تشتري لنفسها ملابس تتفق مع هذه الازياء . وكل هذا قد اصبح يقع بسرعة وكأنما أصابنا جنون فلا تفكير لنا ولا شخصية .

من كل هذا نرى كيف تعطل الازياء اقتصادنا القومي في العالم العربي ، فالقضاء على هذه البدعة مسؤولية الحكومات الاشتراكية الثورية التي قامت في ديارنا . واول واجب يقع على هذه الحكومات ان تحافظ على روح اللباس الشعبي العربي بدلا من ان نقلد في لباسنا الغرب بدعوى ان ازياءه عالمية . ولكم احترم الهند في انها حافظت على لباسها وصمدت في وجه الغرب صمودا رائعا . فالمرأة الهندية تلبس الساري الهندي الجميل الذي يلف كتفيها ويهبط حتى قدميها فيحفظ كرامتها القومية ويصون عزتها النسوية . ان ملابسها هندية وليست اوربية وهي تلبسها في وطنها وفي العالم كله ، وهي لاتقدس ازياء الغرب ، ومحلات الازياء عندها بلا أية قيمة . فما أروعه مثلا للمرأة العربية لو ارادت ان تنظر . ان علينا ان نحيي ملابس جداتنا الطويلة التي تصون العفة وتحفظ الجسم من الحر والبرد أجمل حفظ ، وفي وسعنا ان نطور هذه الملابس بما يلائم العصر على ان نضع الانماط في بلادنا دون ان نستوردها من الخارج . وهذا الاحياء لازيائنا الشعبية لا يمكن ان يتم ان لم تتعاون عليه الحكومات الاشتراكية العربية ، لان الزي الغربي قد تفشى في حياتنا شر تفش فالتغيير لا يمكن ان يقوم به الافراد وانما هو وظيفة الحكومات .

وفي مقابل هذا تمنع مجلات (بوردة) وأمثالها من دخول العالم العربي ، وتمنع المجلات والجرائد العربية من نشر انباء (الميني جوب) كما يسمونها وما اكثر ما تقوم جرائدنا بالدعوة لهذه الازياء وهي غافلة . ثم تعيد الحكومات العربية النظر في الاذاعات المرئية التي افسدت الحياة العربية ايما افساد ، فان مذيعاته التلفزيون قد اصبحن شر نموذج للاناقة المصطنعة تقلدهن تليمذات المدارس وربات البيوت في نمط شعرهن ولباسهن . وقد كان على الاذاعة المرئية ان تدرك ان المذيعة ينبغي ان تكون مثالا للحشمة والوقار وبساطة الشعر والملبس لتكون قدوة صالحة للمواطنة العربية العاملة التي يهمها عقلها وبيتها ووطنها وتنفق وقتها في التعلم والتوجيه والخدمة . فماذا نجد بدلا من ذلك ؟ نجد مذيعات لا هم لهن الا ان يجلسن تحت مجفف الحلاق يوميا فالمذيعة تبدو كل يوم بتسريحة شعر جديدة ، وما أقبح ما تبدو ! انها تخطىء في قواعد النحو خطأ شنيعا مخجلا غير ان شعرها مجعد ملفف منضد حتى تلوح أشبه بالقطة المنفوشة . وهذا مسلك لا يليق باذاعة حكومية المفروض فيها توجيه المواطنين الى الصلاح والسداد .

والواقع الذي لا مفر لنا من مواجهته ان الحكومات العربية الاشتراكية لا تدرج اصلاح وضع المرأة ضمن مخططاتها السياسية والثقافية ، فكأن العامل هو الرجل وحده ، أما المرأة فان وظيفتها ان تخيط الملابس وتجعد شعرها وتطيل أظفارها وتلبس الكعوب العالية . نعم ، نحن نعترف بأن الثورة لم تفرق نظريا بين الرجل والمرأة بل دعتهما كليهما الى العمل والبناء . ان قوانيننا تساوي المرأة بالرجل وتتحدث في اخلاص عن تكوين الفرد العربي رجلا كان أو امرأة بحيث يعمل في بناء الامة العربية وانقاذها من الاستعمار والتخلف والتمزق . والاشتراكية في هذا الحديث تعتبر المرأة فردا عاملا في المجتمع عليها ما على الرجل وكل هذا مقبول . وانما نعترض على انه نظري وحسب . فان وضع المرأة الحالي لا يعطيها من الفرص اكثر من ان تذهب الى الحلاق وتتفنج وتحاول الاغراء على كل أسلوب . ثم غزتنا الملابس القصيرة وكنا نأمل ان تردعنا عنها تقاليدنا الكريمة وحرمة الشرف عندنا فاذا المرأة تنهار امام هذا الغزو الفاضح ولا لوم عليها اذا هي انهارت فلست أرى الصحافة والاذاعات الا مشجعة جميعا على هذا الانهيار . لا بل ان الحكومات العربية نفسها تشتري مجلات الازياء وتملأ بها أسواقنا . وهل المرأة ملك سماوي، لتقاوم كل هذا السيل من الاغراء والدعوة ؟ ان هناك تخطيطا عاما في مجتمعنا يرسم للمرأة ان تنهار امام الغزو المادي الغربي . ولو أرادت الحكومات

العربية ان تخطط تخطيطا أخر لاستطاعت ، وذلك بأن تمنع مجلات الازياء الغربية منعا صارما ، وتقيم معامل للاقمشة عربية وتحيي ازياءنا الشعبية وتستعمل وسائل الاعلام في تشجيع المواطنة العربية على تقليل نفقات زينتها والتبرع بها للمجهود الحربي وللآلاف المؤلفة من اللاجئين العراة . ان كل هذا حري ان يتم لو شاءت الحكومات العربية ان يتم ، ولا بد لذلك من تخطيط جديد يعطي للقضايا الاجتماعية قيمتها الكبرى في الخطط السياسية العامة .

واني لأحب ان الفت النظر فيهذا الباب الى نقطة جوهرية في مسألة الازياء التي نستوردها وهي ان اغلب معامل الاقمشة ومصانع العطور والمساحيق انما يملكها اليهود في الغرب. واليهود كما ثبت في هذا العصر يسعون الى ان يسيطروا على العالم ويحكموه بعد القضاء على الحكومات العالمية جميعا . وأسلوبهم في السيطرة ذو شقين ، أولهما الاستيلاء على المال في كل بلد ينزلونه ، وهذا قد تحقق لهم حيثما وجدوا لانهم قوم يقيمون تعاملهم على ابتزاز الاموال بوسائل غير مستقيمة مثل الربا (١)،وثانيهما هدم الاخلاق والمثل والقيم والمعتقدات. واليهود يعلمون حق العلم انهم اذا هدموا الاخلاق تهدمت الشعوب وانهارت امامهم . قال الشاعر العربي :

وانما الامم الاخلاق ما بقيت
فأن هم ذهبت اخلاقهم ذهبوا

ومن هنا نصل الى النقطة الجوهرية في بحثنا ،فقد عمل اليهود على السيطرة على معامل الملابس والمساحيق والعطور وسواها من مستلزمات « المودة » (٢) وهم بذلك يتوصلون الى تحقيق الغرضين فيسيطرون على المال ويفسدون الدين والاخلاق . انهم يعملون على بيع أكبر مقدار ممكن من الملابس ومنتجات الازياء الى نساء العالم، فكلما غيروا الانماط زادوا النساء شراء وانفاقا وتسربت الاموال الى جيوب اليهود . وهم يحققون ايضا قتل الاخلاق القومية للشعوب فيشيعون التفسخ وينشرون الشهوات . وانما الملابس القصيرة ابتكار يهودي ، فقد رفعوا أزياء النساء فوق الركبة ليزول الحياء وتنتشر الرذيلة ويشيع الاختلاط غير البريء بين الشبان والشابات وتضيع طهارة الفتاة وتتهدم الاسرة وتنتشر الامراض الجنسية ويبتلي الاطفال الابرياء وينشأ جيل ضائع موبوء مريض . كل هذا يصنعه اليهود ونحن غافلون . والمرأة العربية تسعى الى حتفها وحتف أمتها فهل آن لها ان تعرف هذا وتفيق من أحلامها ؟

وفي ختام هذه المحاضرة أود ان أتوجه بنداء الى المرأة العربية عامة : ان تدرك قيمتها ومكانها في الوجود والحياة وتضع لنفسها فلسفة جديدة ترفع شانها وتعطي القيمة الاولى لذهنها وروحها . ولتعلم المرأة ان اللباس عرض خارجي اصله الستر ودفع الحر والبرد ، وانما الانسان بعقله وحديثه وعمله وخلقه لا بملبسه وحذائه . ومن الاجحاف بمكانة المرأة ومواهبها العظيمة ان تقيم حياتها على مجرد أرضاء الغريزة وتسلية الرجل ، فهي أرفع من ذلك ، وقد اعطاها الله من أصالة الذهن وقوة الروح وابداع المواهب ما جعل من النساء في الوجود مبدعات في العلم والاختراع والفلسفة والادب والفن جميعا ، وقد ساهمت النساء في فروع المعرفة-جميعا فلا ينبغي للمرأة العربية ان تتخلف وتركن الى غريزتها وعواطفها بأضيق المعاني . .

واني لاؤمن ايمانا كاملا بدور الرجل في توجيه المرأة ، فاذا كانت فتاتنا العربية متخلفة تعيش بغرائزها دون عقلها ، وتحيا للازياء لا للحقيقة فانما الرجل مسؤول عن ذلك كله . وانما تتزين المرأة للرجل فلو كانت كل فتاة تجد رجلا تعزه ويلومها على تبرجها ويعلن ازدراءه له لتركت المرأة التبرج تركا تاما . والواقع ان الرجل عندنا متخلف كالمرأة وهو ما زال يحب الفتاة الضعيفة الذهن المثقلة بالزينة المصطنعة التي تلبس له التحتية القصيرة وتجعد شعرها عند الحلاق . فكل ما ذكرنا في هذه المحاضرة من وجوه التأنق والتبرج ترجع أسبابه الى المرأة والرجل معا ، والمجتمع كله مسؤول . ومن ثم فان الاناقة المسرفة التي تتصف بها المرأة العربية اليوم ذات دلالة اجتماعية أكيدة على وضعنا كله . ولن يتغير هذا الوضع بمجرد محاضرة تلقى في جامعة البصرة . وانما سيتغير اذا سمعت الحكومات العربية ما نقول واتخذت تخطيطا عاما له فلسفة اخلاقية دينية ، وهدفه المحافظة على اصالة الامة العربية وحفظ كرامة المرأة ورفع الاقتصاد القومي ومن ثم بنتيجة هذا كله ضرب اسرائيل .

نازك الملائكة

(١) راجع كتاب « اليهودي العالمي » جمع هنري فورد .

(٢) يراجع فيهذا كتاب عبدالله التل « خطر اليهودية العالمية على الاسلام والمسيحية » .

المكتبة الوطنية وفروعها

البحرين ـ الخليج العربي

وكلاء توزيع كتب ومجلات وادوات مدرسية
اطلبوا منها

مجلة « الآداب » ومنشورات « دار الآداب »